مدينة طليطلة
ودورها في نشر الحضارة العربية والإسلامية بأوروبا خلال العصور الوسطى

The Toledo city and its role in spreading Arab and Islamic civilization In Europe during the middle Ages

أ/- مرزاق بومداح
المدرسة العليا للأساتذة
- بوزريعة - الجزائر

الملخص:

اتصلت الأمم الأوروبية بالحضارة العربية والإسلامية عبر عدة معابر ومن أهمها: الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، وبلاد الشام ومصر إبان الحروب الصليبية، وتُعتبر الأندلس من أهم هذه القنوات، وكان لها أثر بالغ في تعريف أوروبا بالتراث العلمي العربي والإسلامي في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون في العصور الوسطى يعيشون فيما أطلقوا عليه اسم العصور المظلمة، ولهذا تسابقت الأمم الأوروبية منذ ذلك الوقت للاستفادة من علوم العرب والمسلمين وترجمتها ودراستها.

سيكون تركيزنا في هذه الدراسة على إحدى أهم حواضر الأندلس وهي مدينة طليطلة ودورها في نقل الحضارة العربية والإسلامية إلى أوروبا، والتي أصبحت عاصمة لمملكة قشتالة النصرانية بعد احتلالها من طرف ألفونسو السادس في سنة 478هـ/1085م.

الكلمات المفتاحية:

طليطلة؛ الحضارة الاسلامية؛ أوروبا؛ العلوم؛ الترجمة؛ البعثات؛ المستعربون.

Summary:

European nations contacted Arab and Islamic civilization through several crossings, the most important of which are: Andalusia, Sicily, and in the Levant during the Crusades period. the Andalusia is considered one of the most important of these crossings, and it had a great impact on introducing Europe to the Arab and Islamic scientific heritage. and that is why European nations have competed since that time to benefit from the sciences of Arabs and Muslims, and to translate it into their different languages.

This study will focus on one of the most important Andalusia cities , which is the city of Toledo and its role in the transfer of Arab and Islamic civilisation to Europe, which became the capital of the Christian Kingdom of Castile after its occupation by Alfonso VI in 478 AH / 1085 CE.

Key Words:

Toledo; Islamic civilization; Europe; Sciences; Translation; Missions; Undercover.

أولا: الإطار الجغرافي والتاريخي لمدينة طليطلة:

يذكر البكري أن اسم طليطلة[1] باللغة اللاتينية تولاظو، وذكرها المؤرخ الروماني تيتيلف باسم طُليطُم (Toleteum)، ومعنى طليطلة فرح ساكنها، ويقصدون بذلك أنها كانت مدينة حصينة ومنيعة، فلا يتعرض سكانها للغارات والغزو من قبل الأعداء. وكان يقال لها مدينة الأطلال، لأنها بُنيت على الهرج والقتال، وتقع هذه المدينة في وسط الأندلس تقريبا، وذكر الشنتريني موقع طليطلة في الأندلس بقوله:" وهي من الجزيرة كنقطة الدائرة، وواسطة القلادة، تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأضرار بها قاصياً ودانيها"[2]، بينما يذكر لنا الحميري موقع طليطلة بقوله:" بينها وبين البرج المعروف بالحجارة خمسة وستون ميلا، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل[3]، ومنها إلى بلنسية تسع مراحل أيضا، ومنها إلى المرية في البحر الشامي تسع مراحل أيضا"[4].

ومن خلال ما ذكرته المصادر والمراجع فإن طليطلة تميل إلى جنوب الأندلس عن شماله، وذلك لأن وسط الأندلس هو جبل الشارات وطليطلة كما ذكر الإدريسي تقع جنوب هذا الجبل[5].

يمكننا القول من خلال ما سبق أن طليطلة تقع في وسط بلاد الأندلس، وهي شمال شرق قرطبة التي كانت عاصمة للدولة الأموية بالأندلس، وجنوب غرب العاصمة الإسبانية مدريد حاليا، وقد أكسبها هذا التوسط سهولة الاتصال بالمدن الأندلسية الأخرى، كما شكل هذا التوسط عاملا رئيسيا للتأثيرات السياسية والحضارية مما أفاد طليطلة في تبادل المنافع وانتعاش اقتصادها، وفي نشاط الحياة العلمية وازدهارها[6].

ومن الناحية التضاريسية فطليطلة تقع على مرتفع عبارة عن هضبة صخرية ترتفع عن سطح البحر بأكثر من 500 متر، ويحيط بها نهر تاجة من ثلاث جهات عدا الجهة الشمالية على شكل يقرب من ثلثي الدائرة، وتحيط الجبال بطليطلة وتذكر المصادر أن عددها سبعة، ومن أهم هذه الجبال المحيطة بها سلسلة جبال الشارات في شمالها وسلسلة جبال أوريتانا في الجنوب، وأهم أجزائها جبال طليطلة، أما سطح طليطلة الداخلي فيقل فيه استواء الأرض، بالإضافة إلى أن بطليطلة جبل يُعرف بجبل عمروس[7].

وأما عن تاريخ تأسيس مدينة طليطلة ونشأتها فهو غير معلوم بشكل دقيق، وقد أُطلق عليها حسب قول القزويني مدينة الملوك لكثرة الملوك الذين حكموا بها حيث كانت عاصمة لملكهم، ويقال بأن عدد هؤلاء الملوك بلغ اثنين وسبعين ملكا، وهناك عدة روايات عن تاريخ تأسيس هذه المدينة، فهناك رواية تشير إلى وجودها في عهد الفينيقيين من غير تحديد فترة محددة، ورواية الحموي تذكر أن الذي قام بتأسيسها هو دقيانوس، بينما هناك رواية أخرى تشير أن الذي قام ببنائها هم اليهود في القرن السادس قبل الميلاد حيث أقاموها مستودعا لمعدن الذهب في إسبانيا، ويذكر ابن عذارى إلى أن القيصر الروماني أكتبيان هو الذي بنى طليطلة، ولا يوجد ما يؤيد أحد الروايات المذكورة، ولكن المؤكد هو وجودها قبل القرن الثاني قبل الميلاد، وذلك لوجود إشارة بأن الرومان دخلوا طليطلة في عام 192 ق.م، وفي هذا الصدد يذكر البكري:" ومدينة طليطلة... ألفتها القياصرة مبنية وقد استمر حكمهم لطليطلة أكثر من ستة قرون حيث سقط على يد القوط بدخولهم طليطلة في عام 467م". ومنها استطاع القوط بسط سيادتهم على كامل بلاد الأندلس، وقد جعلوا من طليطلة عاصمة لهم، وحكم منهم ستة عشر ملكا، لمدة أربعمائة عام حسب رواية ابن خلدون، وكان آخرهم لذريق الذي هزمه المسلمون ودخلوا عاصمته في عام 92هـ/711م[8].

وأما عن تاريخ طليطلة خلال العهد الإسلامي فقد مرّ بعدة مراحل فالمرحلة الأولى مرحلة عصر الولاة الذي يبدأ من تاريخ فتح الأندلس سنة 92هـ/711م ويستمر إلى دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة 138هـ/755م، والمرحلة الثانية عصر الدولة الأموية بالأندلس وينقسم إلى عهد الإمارة الأموية الذي يبدأ من سنة 138هـ/755م، وعهد الخلافة الأموية من سنة 316هـ/928م إلى سنة 422هـ/1031م تاريخ سقوط الخلافة الأموية، والمرحلة الثالثة تسمى فترة حكم ملوك الطوائف حيث انقسمت الأندلس إلى عدة دويلات ويبدأ من سنة 422هـ/1031م ويستمر إلى غاية سنة 502 هـ/1108م، وفي عهد حكم ملوك الطوائف كانت طليطلة مملكة مستقلة تحت حكم بني ذي النون من قبيلة هوارة البربرية إلى تمكن القشتاليون بزعامة ألفونسو السادس من الاستيلاء على مملكة طليطلة سنة 478م/1085م وجعلوها عاصمة لمملكتهم[9].

ثانيا: وسائل وقنوات انتقال العلوم العربية والإسلامية من الأندلس إلى أوروبا:

تعددت الوسائط والقنوات التي تم من خلالها نقل الحضارة العربية والإسلامية من الأندلس إلى أوروبا، وكان من أبرز هذه القنوات نذكر: المستعربون، اليهود، المدجنون، إضافة إلى الوفود والبعثات ...بحركة الترجمة، وهي كالتالي:

1-المستعربون (Mozarabes):

وهم نصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم، واستمروا في العيش في المدن والأراضي المفتوحة تحت الحكم الإسلامي، فكانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون اللغة العربية مع احتفاظهم بدينهم، وكان العرب يسمونهم بعجم الذمة، أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين[10]، وقد كانت منهم ثمة أعداد كبيرة في طليطلة،ـ وساعدوا الفاتحين المسلمين وقت الفتح، وتعاونوا معهم في حفظ المدن المفتوحة وإدارتها، وكان المستعربون يتمتعون بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها، وكانوا يمارسون في طليطلة أشغالا علمية وعملية مختلفة، ربما أهلت بعضهم أن يصبحوا من ذوي النفوذ، وكان السواد الأعظم منهم يقيم في طليطلة التي كانت قبل الفتح الإسلامي للأندلس عاصمة القوط الغربيين والحاضرة الدينية لشبه الجزيرة الإيبيرية، كما أنهم درجوا على أن يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن، وإن كان ذلك لم يمنعهم من مخالطة السكان، وكان هؤلاء المستعربون بحكم معرفتهم للغة العربية واللاتينية يمثلون أداة اتصال بين طليطلة وباقي إسبانيا النصرانية وأوروبا [11].

وكان لإقبال المستعربون على استعمال اللغة العربية في مخاطباتهم ومعاملاتهم، وتأثرهم بالحضارة الإسلامية في مجالات حياتهم اليومية، حتى أن المطران آلبرو القرطبي سجل لنا شكواه من ذلك، ومما قاله:" ...إن الشباب النصراني ليست لديه أي فكرة عن أدب أو لغة حاشا العربية، فهم يطالعون الكتب العربية ويتدارسونها بينهم، وينفقون أموالا جمة في جمعها، ويتغنون بالتراث العربي، وإذا حدثتهم عن الكتب المسيحية تجدهم يقولون أنها لا تعير انتباههم... إن النصارى نسوا لغتهم، وقلة منهم تستطيع أن تكتب رسالة باللاتينية، وإن كثيرون منهم يجيدون التعبير عن أنفسهم بالعربية، بل ينظمون شعرا يفوق في جزالته شعر العرب أنفسهم". ويؤكد حديث آلبرو السابق ما نجده في الوثائق المستعربة بطليطلة، فهذه المدينة خرجت من الحكم الإسلامي لها في سنة 478هـ/1085م، أي أنها عادت إلى دائرة النصرانية من جديد، ومع هذا ظل أهلها من المستعربين يتحدثون بالعربية، ويكتبون بها وثائق أغلبها يتصل بالمعاملات نحوا من قرنين، وحتى في حال كون أحد الأطراف لا يحسن العربية أو لا يعرفها فإنه كان يدون بالوثيقة أنه قد شرح له بلفظ أعجمي [12].

وكان لإلمام المستعربين باللغتين العربين واللاتينية أن يقوموا بدور السفراء والمترجمين بين حكام الأندلس المسلمين وممالك إسبانيا النصرانية وأوروبا، وفي هذا الصدد نجد أن الكثير من الكتب اللاتينية التي كتبها المستعربون تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية، ومن الكتب اللاتينية نجد كتاب بعنوان:" تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان"، وهو كتاب ذو تقويم فلكي ومناخي زراعي، ويُظن أن الذي ترجمه إلى اللغة اللاتينية هو جيرارد الكريموني، ومؤلفه هو الأسقف ريكموند الذي يسميه العرب ربيع بن زيد، وكان في خدمة عبد الرحمن الناصر، وكانت له علاقة وطيدة بأسقف جرتز يوحنا، الأسقف كان سفيرا لعبد الرحمن الناصر(300-350هـ/912-961م) لدى هوتو (Otto) إمبراطور ألمانيا، ولا

شك في أن هذه السفارات كانت إحدى القنوات التي عبرت من خلالها الثقافة العربية والإسلامية إلى إسبانيا النصرانية[13].

ويذكر بالثيا أن المستعربين ظلوا يكتبون باللغة العربية ويتسمون بالأسماء العربية حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي [14].

وكانت الثقافة اللاتينية حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بعيدة عن النشاط العلمي، ولم يكن لأصحابها علم واسع بالحساب أو الرياضيات كالعرب المسلمين، وما كانوا يعرفونه في هذا المجال لا يعدو إلا أن يكون جهودا أولية بجانب ما ظهر عند مسلمي الأندلس في ذلك الوقت، ولذلك فليس من الغريب أن يحمل مستعربو الأندلس هذا العلم إلى ممالك أرغونة وليون وكونتية برشلونة، وقد عثر الأستاذ بييكروسا على مخطوط هو الآن أحد مخطوطات مكتبة ريبول في محافظة برشلونة، ويحمل رقم 225، وهو مجموع عظيم من المقالات في الفلك والرياضيات مترجمة من العربية إلى اللاتينية، والترجمة اللاتينية نفسها حافلة بالمصطلحات العربية، واستنتج هذا الباحث من دراسة هذا المخطوط أن علم الفلك والرياضيات كان مزدهرا في الأندلس قبل أيام الخليفة الأموي الحكم المستنصر (350-366هـ/961-977م)، وازداد هذا الازدهار بعد ذلك على يد مسلمة المجريطي، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[15].

2-المدجنون (Mudjanes)[16]:

هم المسلمون الذين أقاموا في بلاد الأندلس بعد أن استولى عليها النصارى نتيجة الحروب المستمرة مع المسلمين، وقد عومل هؤلاء في البداية معاملة جيدة بصفة عامة حسب معاهدات السلام مراعاة للظروف السياسية والاقتصادية التي جعلت من الأفضل عمل حساب لهؤلاء المسلمين المدجنين بسبب الحاجة إلى السكان والعمال الزراعيين، ولم يبدأ التضييق عليهم بشكل واضح إلا عقب هزيمة

ملك قشتالة النصراني ألفونسو السادس في موقعة الزلاقة عام (479هـ/1086م) على يد المرابطين [17].

ورغم المعاملة القاسية التي عانى منهم المسلمين فقد بقي في تلك المدن التي استولى عليها نصارى إسبانيا كمدينة طليطلة وغيرها آلاف من المسلمين المدجنين، وكانوا من قنوات الاتصال بين الحضارة الإسلامية الزاهرة في الأندلس وبين إسبانيا النصرانية المتخلفة، وكان لهم تأثير كبير في الحياة هناك منذ نهاية القرن 3هـ/8م عندما استولى ألفونسو الثالث على المدن الإسلامية التي تقع شمال وادي دويرة، وكانوا يؤلفون اليد العاملة فيها، وازداد نشاطهم وضوحا في القرن5هـ/10م، ووفد على علمائهم-وخاصة في طليطلة-طلاب العلم من أنحاء إسبانيا وأوروبا لينهلوا من الثقافة الإسلامية التي ترجمت إلى اللاتينية وما تفرع عنها من اللهجات، وبقيت المدن التي سقطت في يد نصارى الإسبان مثل طليطلة وطلمنكة وبرشلونة وغيرها، تستخدم اللغة العربية التي كان يتكلمها المدجنون لعدة قرون بعد سقوط تلك المدن، وكان هناك من علمائها وأدبائها من فضلوا البقاء فيها ربما للحفاظ على أملاكهم وعقاراتهم وعدم التخلي عنها [18].

وقد أحجمت المصادر التاريخية ككتب التراجم والطبقات عن ذكر هؤلاء العلماء والأدباء إلا في القليل النادر جدا، لأن تلك المدن أصبحت تحت سيطرة النصارى، ولم تعد ديار إسلام، ففي طليطلة على سبيل المثال لم نعثر إلا على ترجمة لاثنين من علمائها أقاموا بها بعد سقوطها في يد ألفونسو السادس عام 478هـ/1085[19].

الأول: أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصاري الذي عني بسماع العلم ولقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وكان له بصر بالمسائل وميل إلى الأثر وتقييد الخبر، وله كتاب في تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها، وتوفي بطليطلة سنة 489هـ/1096م، أي بعد سقوطها بيد الإسبان النصارى بأحد عشر سنة [20].

الثاني: أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جماهر الحجري من أهل طليطلة، طلب العلم ببلده، ثم رحل إلى المشرق الإسلامي، وأدى فريضة الحج وأخذ العلم عن علماء مكة المكرمة ومصر، ثم عاد إلى طليطلة، وبقي هناك إلى أن توفي سنة 489هـ/1095م[21].

ومن هنا نفهم أنه لم يكن هناك مانع من عودة المسلمين إلى البلاد التي استردها نصارى الشمال إذا ما خرجوا منها للحج أو لسبب آخر، وظل هؤلاء يعيشون بين ظهراني النصارى وسموا بالمدجنين كما قلنا، وكانوا عاملا ورافدا أو قناة من قنوات الاتصال بين الثقافة الإسلامية المتفوقة والثقافة النصرانية الإسبانية الناشئة [22].

3-اليهود:

كان نشاط اليهود مؤثرا وكبيرا في نقل التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وأوروبا في جميع مجالات الحياة، سواء كانت اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية، وذلك لأنهم كانوا يجيدون اللغتين العربية واللاتينية، فكانوا لهذا السبب من أهم وسائل الاتصال بين الدولة الإسلامية في الأندلس وأوروبا النصرانية، وكان اليهود تجارا ومترجمين وسفراء ووزراء وحرفيين يمتهنون حرفة التجارة بين بلاد الأندلس وأوروبا وخاصة تجارة الرقيق، ويترجمون الكتب الإسلامية العربية إلى اللغتين العبرية واللاتينية، وينشرونها في أوروبا، ونبغ منهم الكثير في الطب والفلك والكيمياء والفلسفة أمثال حسداي بن شبروط طبيب الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/913-961م)، وسفيره إلى ملكة نبرة تيودا (Tueda)[23].

ونزل جماعة من اليهود ببلاط وليم النورماندي في إنجلترا عام 459هـ/1066م فاحتفى بوجودهم، وكان لهم اسهام بارز في إنشاء مدرسة إكسفورد، حيث سخروا علومهم ومعارفهم التي اقتبسوها من مسلمي الأندلس في تنظيم المناهج والدروس العلمية في تلك المدرسة، وفي تلك المدرسة تلقى روجر بيكون الثقافة العربية ونهل من علوم العرب التي أهدته إلى أهمية المنهج التجريبي في العلوم، وأقام اليهود مدارس لتدريس الطب في جنوبي فرنسا، وساعد الأطباء اليهود على إقامة مدرسة منلبيه الطبية الشهيرة، وحدث انقلاب عظيم في علم الطب بتأثير اليهود الذين تأثروا بالحضارة الإسلامية فقاموا بنشرها في ربوع القارة الأوروبية[24].

ومن أوائل المترجمين للكتب العلمية العربية والعبرية اليهودي إبراهيم برحيا هاناسي (ت. 530هـ/1136م) الذي كان يقيم ببرشلونة، وألف كتابا في الهندسة العلمية في سنة 510هـ/1116م، وترجمه Planto di tivoli إلى اللاتينية سنة 539هـ/1145م بعنوان: Liber embadorun، وقد كان لهذا الكتاب أعمق الآثار في تطور علم الهندسة، كما أنه وجه ليونارد بيزانو (Leanardo Pisano) إلى نقل الرياضيات العربية الإسلامية إلى بلدان أوروبا ونبغ منهم أيضا في ميدان الترجمة إبراهيم بن عزرا الذي ولد في طليطلة سنة 491هـ/1097م الذي ترجم شرح أحمد بن المثنى بن عبد الحكم على زيج محمد بن موسى الخوارزمي البغدادي (ت236هـ/851م)، وألف رسالته في الحساب يعرض فيها كيفية العمل بالأرقام العربية والصفر، وأما موسى بن طبون اليهودي فقد ترجم 30 كتابا من اللغة العربية إلى اللغة العبرية في مرسيليا (638-682هـ/1240-1283م)، ومن أهمها: كتاب الأصول في الهندسة لأوقليدس والقانون وأرجوزة في الحميات لابن سينا (ت428هـ/1037م)، والترياق للرازي(ت320هـ/932م)) وثلاثة مؤلفات لابن ميمون الأندلسي(ت600هـ/1204م)، وزاد المسافر لابن الجزار القيرواني(ت369هـ/980م)، وكتاب ابن الصفار

الأندلسي(ت ق5هـ/11م) في العمل بالإسطرلاب، وغير ذلك من الكتب[24]، كما ترجم يعقوب بن طبون حفيد صمويل عددا من الرسائل إلى اللغة العبرية وبعضها إلى اللغة اليونانية، وترجمت إلى اللغة اللاتينية الكثير من التراجم العبرية للكتب العربية، ومن ذلك كتاب التيسير لابن زهر الذي ترجم في بدوا في عام 679هـ/ 1280م[25].

وخلاصة القول أن اليهود كان لهم الدور الكبير في نقل التراث الحضاري الإسلامي من بلاد الأندلس إلى أوروبا، وكانوا حلقة من حلقات الاتصال بين الطرفين، إذ أنهم كانوا كثيري التنقل بحجة الأعمال، وكانوا كثيرا ما يتجاوزون شمال إسبانيا إلى فرنسا حيث كان يجذبهم وجود طوائف يهودية في مقاطعتي اللانجدوك والبروفانس [26].

4-الوفود والسفارات:

من أهم قنوات الاتصال بين الأندلس الإسلامية وأمم أوروبا النصرانية الوفود والسفارات التي كانت قائمة بين الطرفين، ويعتبر عهد الخلافة الأموية في القرن 4هـ/10م، وبالتحديد في عهد عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/913-961م) وولده المستنصر 350-366هـ/961-977م)، وفي عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر (366-392هـ/977-1002م) من أحفل العصور بالعلاقات بين المسلمين في الأندلس وبين الممالك والدول الأوروبية، فكان ثمة معاهدات سياسية وسفارات ووفود بين دولة الخلافة الأموية ومعظم هذه الدول التي توالت وفودها إليها، ينشدون الصداقة والمودة والحلف ويلتمسون المفاوضة في شتى الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية، ويذكر لنا المقري أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر كان في غاية الفخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب

القسطنطنية العظمى، فإنه هاداه ورغب في موادعته، ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطنية في سبيل المهادنة والسلم طلبا لمرضاته، ووصل إلى سدته ملوك الجلالقة من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجبهات قشتالة وبنبلونة وما إليها من الثغور الجوفية، فقبلوا يده، والتمسوا رضاه، واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه[27].

ولم تكن دولة الخلافة بالأندلس ملاذ لملوك أوروبا وأمرائها ونبلائها لفرض عقد المعاهدات السياسية والمفاوضات الدبلوماسية فحسب، وإنما كانت ملجأ لهم أيضا للاستشفاء من مرض خطير أ و أرادوا إجراء عمليات جراحية صعبة، ويذكر المستشرق دوزي أنه وفد شانجه ملك ليون إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر لمعالجته من السمنة المفرطة على يد أحد الأطباء وهو حسداي شبروط وذلك عام 347هـ/959م، وتمكن هذا الطبيب من معالجته، كما وفد إلى قرطبة الراهب جلبرت الذي أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني بطلب تعلم العلوم الطبيعية والرياضة، وأمضى في ذلك ثلاث سنوات(356-359هـ/967-970م)، ثم عاد إلى بلده روما، وتولى كرسي البابوية في حدود عام 390هـ/999م، ودعي بالبابا الفيلسوف، وكان أول سفير للعلم العربي الإسلامي، وأصبح مصدر إعجاب لثقافته وإسهاماته في تعريف أوروبا بعلوم الرياضيات والحساب والفلك، وقد أدهش الناس بما يحمله إليهم من عجائب علوم الفلك والرياضيات والحساب، وعدو ذلك من أعمال السحر والشعوذة، وكان يستخدم الإسطرلاب-وهو بابا الفاتيكان-لتعيين ارتفاع الشمس وقوس الليل والنهار، ولا يزال هذا الإسطرلاب إلى اليوم محفوظا في فلورانسا الإيطالية، ويرجح المؤرخ الإيطالي ألدوميلي أن سلفستر الثاني بابا روما هو أول نصراني عرف أوروبا بالأرقام العربية، ووجه شانجه (سانشو الثالث) ملك نبرة 391-426هـ/1000-1035م رسالة إلى قرطبة لجلب بعض

علماء المسلمين لتعليم ابنه وولي عهده، فأرسلت له قرطبة اثنين من علمائها قاما على تربيته وتهذيبه[28].

ويذكر الدكتور أحمد شلبي أن بعض من تولى الملك في أوروبا كانوا في شبابهم طلابا في المعاهد الإسلامية، ومن هؤلاء الملك ألفونسو السادس الذي التحق بمعاهد الأندلس الإسلامية، وارتوى من معينها، ومنهم أيضا ملك إنجلترا جورج الثاني الذي أرسل إلى الخليفة هشام الثالث يستأذنه في قبول مجموعة مختارة من الطلاب الإنجليز ليلتحقوا بالمعاهد الإسلامية بقرطبة، وكان هذا الوفد تحت إشراف أميرة من أميرات البيت المالك، وهي ابنة شقيقة الملك، ونص خطاب ملك إنجلترا هو كالتالي:" من جورج الثاني ملك إنجلترا والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام. بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا، وقد وضعنا ابنة شقيقتنا دوبانت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن معلماتهن، وقد بعثت مع الأميرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص. **إمضاء المطيع جورج.**" [29].

وفي نص هذا الخطاب دلالة واضحة على حالة التقدم والتطور العلمي والازدهار الحضاري الذي بلغه المسلمون في بلاد الأندلس، وحالة التخلف والجهل الظاهر التي كانت تعاني منه دول أوروبا كإنجلترا مثلا، ويدل نص هذا الخطاب أيضا على حرص الإنجليز على تلقي العلم من مسلمي الأندلس حتى بالنسبة لبنات الأشراف مع ما في ذلك من مشقة بالنسبة إليهن، ومن أجل ذلك فقد تم وضعهن تحت رعاية الخليفة نفسه [30].

5-الحروب: كانت الحروب المستمرة بين دولة الإسلام في الأندلس وممالك إسبانيا النصرانية -الذين كانوا يتلقون العون والمساعدة من دول أوروبا النصرانية- من قنوات الاتصال والتأثير الحضاري، إذ كانت المعارك الدائرة بين الطرفين تسفر دائما عن أسرى وسبي، وكان هؤلاء ينتقلون إلى الشمال أو الجنوب، ويمارسون حياتهم وأساليبهم في الحياة، وفي الغالب كانوا يتعلمون لغة البلد الذين أجبروا على العيش فيه، وربما اعتنقوا ديانته، وربما تحرر هؤلاء الأسرى وعادوا إلى بلادهم، فقد كانت هناك جمعيات في الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية مهمتها العمل على تحرير هؤلاء الأسرى[31].

وإذا ما عاد هؤلاء الأسرى إلى أوطانهم، وقد تعلموا اللغة العربية، وعاشوا حياة المسلمين الأكثر منهم حضارة ومدنية نشروا ما عرفوه من أساليب الحياة والمعيشة الإسلامية بين أوطانهم، وزاد على ذلك أثر الأسرى المسلمين الذين كانوا يقعون في أيدي النصارى الذين كانوا بدورهم ينقلون معارفهم وعلومهم إلى مناطق إسبانيا النصرانية مما كان لهم الفضل في عملية النقل الحضاري بين الأندلس الإسلامية ودول أوروبا النصرانية [32].

تلك هي أهم القنوات التي نفذت من خلالها العلوم والثقافة العربية والإسلامية إلى أوروبا عن طريق الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ولا شك أن هناك قنوات أخرى متعددة ومؤثرة كالتجارة والزواج المختلط والمحالفات السياسية والعسكرية، إضافة إلى التسامح العظيم الذي تحلى به حكام الأندلس وولاتهم الذي كان له الدور الكبير في إقبال نصارى أوروبا من جميع الأقطار لتلقي مختلف العلوم التي كانت تزدهر بها المدن الأندلسية، ولا بد أن يكون لهذه القنوات من دور فعال في نقل الكثير من المؤثرات الحضارية سواء كانت ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية أو نظم عسكرية وإدارية من الأندلس إلى أوروبا [33].

ثالثا: دور طليطلة في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا:

ظهر دور طليطلة في النقل الحضاري إلى أوروبا بوضوح بعد سقوطها في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة في نهاية القرن 5هـ/11م، وبالتحديد في سنة 478هـ/1085م، وكان ألفونسو السادس قد اتخذ طليطلة عاصمة لمملكة ليون وقشتالة بعد أن سقطت في يده، وكانت تلك المدينة الهامة قبل الفتح الإسلامي عاصمة مملكة القوط الغربيين، وقد أصبحت في القرن 5هـ/11م مركزا للثقافة الإسلامية، وبقي لها هذا المقام بعد الغزو النصراني لها في سنة 478هـ/1085م، وأصبح بلاط ألفونسو السادس مصطبغا بالثقافة الإسلامية، وبسقوط هذه المدينة بدأ في أوروبا عصر جديد في ميدان النقل والترجمة عن علوم المسلمين، وفتحت الأبواب على مصراعيها لدخول الفكر العربي والأندلسي بخاصة إلى الفكر الأوروبي عن طريق الترجمة-في المراحل الأولى-إلى اللاتينية –لغة العلم والتفاهم المشترك في أوروبا، ففي أسواق طليطلة وحول هذه المدينة وفي ظل القصر الذي تم هدمه من جراء الحرب مع المسلمين قام أسقف طليطلة دون ريموند بجمع العلماء من الأديان الثلاثة وأمرهم بترجمة مختلف العلوم العربية والإسلامية، وأدخل دراستها في مناهج المدارس النصرانية، وأصبحت طليطلة مركزا علميا لعدة قرون يفد إليه طلاب العلم من شمال إسبانيا ومن كل أنحاء أوروبا، ونستطيع أن نتبين الدور الكبير الذي قامت به مدينة طليطلة في نقل العلوم العربية والإسلامية إلى أوروبا إذا عرفنا أنها بلغت في عهد المسلمين درجة رفيعة من الحضارة والمدنية، وكانت إحدى القمم في العلم والمعرفة، يدلنا على ذلك ما تحفل به كتب التاريخ والتراجم الأندلسية من الأسماء اللامعة التي تنتسب إلى طليطلة في شتى حقول العلوم، وخصوصا العلوم التجريبية [34].

ومن علماء طليطلة الذين عاشوا في كنفها ونشروا علومهم في الرياضيات والطب العالم المعروف بالزرقالي (ت480هـ/ 1087م)، وكان من مصنفاته الزيج الطليطلي الذي نُقل إلى اللاتينية في القرن 6هـ/12م، واتخذ منه علماء أوروبا أساسا لإعداد تقاويمهم وكتبهم السنوية حتى في زمن كوبر نيكوس(878-950هـ/1473-1543م، وتمكن الزرقالي من ابتكار اسطرلاب من نوع جديد عُرف باسم الصفيحة الزرقالية، وأمكن بواسطته رسم المسقطين المجسمين لدائرة خط الإستواء، ودائرة البروج على نفس السطح، وبعد بضعة قرون بعث هذا الإسطرلاب من جديد على يد جيما الغريزي (Gimma of Frisia) (1508-1555م)، وأطلق عليه اسم الإسطرلاب الكاثوليكي، ويذكر الدكتور عبد العظيم أن الزرقالي الطليطلي يعد أعظم فلكي عرفته أوروبا قبل يوحنا كبلر، وبرز أيضا أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد اللخمي(ت467هـ/1076م) الذي عاش في مدينة طليطلة، وبرع في الطب والصيدلة والنبات، وألف كتابا جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدوس وكتاب جالينوس في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب، وصحح ما ضمنه هذا الكتاب من أسماء الأدوية وصفاتها، وترجمت كتاباته في الزراعة إلى اللغة القشتالية[35].

وبوجه عام ليس هناك علم من العلوم برع فيها الأندلسيون إلا ولأهل طليطلة نصيب فيه، وقد أبقى الحكم الجديد على كثير من ألوان النشاط العلمي الذي مارسه العلماء المسلمون في طليطلة بل إن عددا كبيرا من المسلمين قاموا بدور مهم في تعريف الإسبان النصارى والأوروبيين-الذين توافدوا بأعداد كبيرة على البلاط الإسباني في طليطلة- بمظاهر الحضارة الإسلامية، وما أحرزه المسلمون من تفوق في ميادين المعرفة المختلفة، ويشير فرناندیث جونثالث في مذكراته أنه كان يعيش في طليطلة تحت الحكم النصراني طائفة كبيرة من العلماء المسلمين الذين حظوا بالرعاية والتقدير، وهذا لحاجة النصارى لعلوم المسلمين، وسنرى أنه بعد

زوال تلك الحاجة سيتم اضطهادهم ونفيهم من بلاد الأندلس، وهؤلاء هم الذين سموا بالمدجنين كما ذكرنا من قبل[36].

وشهدت مدينة طليطلة في القرنين 6-7هـ/12-13م نشاطا ملحوظا في ميدان الترجمة ونقل المعارف الإسلامية إلى قشتالة برعاية من رئيس الأسقف ريموند مارتيني(R. Martini) الذي كان كبير مستشاري ملوك قشتالة فيما بين سنتي(520-546هـ/1126-1151م)، وقد أنشأ مكتبا للمترجمين ضم علماء ريموند عرفت في التاريخ باسم مدرسة المترجمين الطليطلين الذين ترجموا ما بين أواسط القرن 6هـ/12م والقرن 7هـ/13م الكثير من كتب الطب والحساب والفلك والرياضيات والكيمياء والسياسة...إلخ، ومنها كتب أرسطو وأفلاطون، وشروح المسلمين عليها، ومؤلفات أوقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط وغيرهم، بالإضافة إلى كتب الخوارزمي(ت. 236هـ/851م)، والفرغاني(ت.247هـ/861م) وابن سينا(ت.428هـ/1037م) وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد(ت. 595هـ/1198م)، والبطروجي(ت. 601هـ/1204م)، والزهراوي(ت. 403هـ/1012م)، وأبو حامد محمد الغزالي(ت. 505هـ/1111م)، إضافة إلى ابن وافد(ت. 467هـ/1074م) وابن البيطار وابن الرومية (ت. 637هـ/1239م) وابن البصال(ت. ق5هـ/11م) وغيرهم من مشاهير علماء العرب والمسلمين[37].

وخلف ريموند مارتيني على أسقفية طليطلة شخصية هامة أسهمت في إثراء حركة الترجمة، وتوسيع آفاقها وهو يوهانس هسبالنسس (Johannes Hispalensis) ويسمى أيضا يوحنا بن داود الإسباني، وكان يهوديا ثم اعتنق الديانة النصرانية، وكان بارعا في الترجمة، حيث ترجم العديد من الكتب في علوم الطبيعة والمنطق والفلك والجبر مثل كتاب الجبر للخوارزمي وغيرها من كتب الفلك والرياضيات، ويبدو أنه كان يترجم من القشتالية على حين أن شريكه دومنيكوس جنديزالفوس (Dominicus Gundisalvus) كان يترجم من القشتالية إلى اللاتينية، ومن خلال

الجهد المشترك ترجم الاثنان عددا من الكتب، ومن أهمها: بعض المصنفات الفلكية والرياضية للبتاني(ت. 317هـ/929م) ولثابت بن قرة(ت. 288هـ/901م) وهما من علماء بغداد، وبعض مصنفات مسلمة المجريطي الأندلسي(ت. 398هـ/1008م)، وغيرهم[38].

ويأتي جيراردو دي كريمونا(Gherardo de Cremona) في مقدمة المجموعة النشطة من المترجمين الذين ذاع صيتهم في القرن 6هـ/12م لما كانوا ينجزونه من ترجمات هامة لمختلف الآثار العلمية لعلماء العرب والمسلمين، وكان جيراردو دي كريمونا المولود في إيطاليا حوالي سنة 508هـ/1114م، والمتوفي في طليطلة حوالي سنة 538هـ/1187م، كان أكثر خصبا وأوسع إنتاجا، ويعد بحق من أشهر المترجمين من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، وإذا كانت ترجمته لكتاب المجسطي-وهو من أصل عربي- إحدى آيات فخاره فإنها لا تمثل إلا جانبا صغيرا من عمله العظيم بحق والذي يتصل بجميع العلوم، وجميع المؤلفين القدماء من الإغريق المعروفين في النصوص العربية على وجه التقريب، كما يتصل بقسم هام من المؤلفين العرب أنفسهم، وإن اتساع دائرة عمله إلى هذا المدى الشاسع ليجعلنا نعتقد-مع كثير من الرجحان-أنه كان رئيسا معترفا به لمدرسة من المترجمين كانت تعمل في طليطلة تحت حماية الحكومة وتعضيدها[39].

ويبدو أن جيرارد دي كريمونا كان مأسورا بعظمة الحضارة الإسلامية، فتوجه إلى طليطلة حيث عكف على دراسة اللغة العربية، فلما أجادها طالع مآثر المسلمين العلمية، وأخذ في ترجمة نفائس الكتب العربية في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك، وقد فقدت معظم الأصول العربية لهذه الكتب وبقيت ترجماتها اللاتينية، وذكر ألدوميليي أنه ترجم عن العربية ما لا يقل عن 87 كتابا ويقال مائة كتاب منها ثلاث رسائل في علم المناظر للكندي(ت252هـ/866م) ورسالة في الفرسطون أو ما يسمى ميزان الذهب لثابت بن قرة الحراني(ت288هـ/901م)، ورسالة في تنقيح المناظر لابن

الهيثم(ت430هـ/1039م)، وكتاب المنصوري في الطب للرازي (ت320هـ / 932م) وأيضا في القسم الخاص بالجراحة، وذلك من خلال كتاب التصريف للزهراوي(ت404هـ/1014م) وكتاب القانون لابن سينا(428هـ/1037م) وكتاب الأدوية المفردة لابن وافد الأندلسي(ت467هـ/1074م) وكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي (ت236هـ/851م)، وترجم أيضا كتبا لجابر بن أفلح (ت540هـ/1145م) والزرقالي (ت480هـ/1087م) وعريب بن سعد (ت370هـ/981م) وثلاثتهم أندلسيون، إضافة إلى علماء اليونان في أصولها العربية ككتب أوقليدس وأرشميدس وأبقراط وأبولونيوس وأرسطو طاليس وغيرهم مما يطول ذكرهم، ونسجل هنا ما ذكره أحمد شوكت الشطى نقلا عن جيرارد الكريموني ما نصه:" لقد قضيت نحوا من نصف قرن في تعلم اللغة العربية والتوفر على ترجمة نفائس المكتبة العربية وكان قانون الشيخ الرئيس ابن سينا أعظم كتاب، وأعظم كتاب لقيت في نقله مشقة وعناء وبذلت في ذلك جهدا جبارا"[40].

والجدير بالذكر أن نشير إلى أن جيرارد لم يتمكن من ترجمة هذا العدد الكبير من المصنفات العلمية للمسلمين إلا بمساعدة فريق من المترجمين يعملون معه، وكان من بين هؤلاء نصراني مستعرب يدعى غالب وقد عرف باسم (Galippus) ، ويذكرنا هذا الفريق من المترجمين بذلك الفريق الذي قام في بغداد بترجمة كتب اليونان إلى العربية بإشراف من الطبيب وكبير المترجمين إسحاق بن حنين العبادي(ت298هـ/910م)، ومن بين مساعدي جيرارد في الترجمة صديقه يوحنا الإشبيلي كان يهوديا ثم تنصر، وانصبت اهتماماته على علوم الفلك والرياضيات، وترجم بمفرده رسالة في الإسطرلاب للمجريطي(ت. 398هـ/1008م)، وكتابا آخر في الساعات لثابت بن قرة الحراني البغدادي(ت288هـ/901م)، كما ترجم لمعاونيه أديلارد دي باث إلى اللغة اللاتينية أربعة كتب وهي لأبي معشر(ت272هـ/886م)[41].

وكان ملك قشتالة ألفونسو العاشر المشهور بالحكيم أو العالم (Alfonso el sabio) (650-683ه/1252-1284م) الذي كان يقيم بطليطلة جهود عظيمة في نقل التراث العلمي العربي إلى اللغة اللاتينية، ويتفق الباحثون على أن هذا الملك الذي قضى في ملكه اثنتين وثلاثين سنة حيث كان له دورا كبيرا في هذا الناحية وأن طليطلة بلغت في عهده الذرة باعتبارها مدينة العلم والنور، إن العمل الذي قام به هو السعي المتواصل لتجميع الثقافة الإسلامية من المصادر كلها وترجمتها ليس فقط إلى اللاتينية، بل ترجمتها إلى القشتالية مستعينا بالعبرية وبكل ما وصل إليه العلماء المحيطون به في حاشيته من عرب ويهود[42].

وكانت طليطلة تعج بطوائف مختلفة وأجناس متابينة من مسلمين ونصارى ويهود، وكان لكثير منهم اطلاع واسع على الثقافة العربية، فاحتفى بهم الملك ألفونسو الملقب بالحكيم وشجعهم على ترجمة المصنفات العربية، وخاصة ما يتعلق منها بالفلك والرياضيات والطب والفلسفة، وكان يشرف بنفسه على أعمال الترجمة والتحرير والتلخيص التي ينجزها المترجمون، وبالرغم من الجو السياسي المضطرب الذي عاش فيه ألفونسو ولم يتح له الاستقرار، لا بالنسبة لجيرانه النصارى ولا بالنسبة لجيرانه المسلمين، وبعد أن كان يحارب الملك يعقوب المريني(657-685هـ/1259-1285م)، ويصول ويجول في مواجهته في أول الأمر، بل ويتعدى على المغرب في سلا والعرائش[41]-هذا الشخص الذي كان منغمرا في ذلك هو نفسه الذي يتحدث عنه التاريخ بأنه بلغ درجة كبيرة من الذكاء والتعلق بالعلم والغرام بالثقافة الإسلامية والسعي الحثيث بترجمة هذه الثقافة الإسلامية ونقلها وإيصالها إلى الغرب النصراني، بل كان يفكر في جعل اللغة القشتالية وهي وقتئذ لا تزال ضعيفة هزيلة لغة تستفيد من اللغة العربية ونظامها، وهذا هو ما يفسر كون اللغة الإسبانية الحالية تشتمل على حوالي أربعين بالمائة من الكلمات العربية، ويشير المؤرخون الإسبان إلى أن ألفونسو وجماعته رأوا

أن اللغة العربية في المدن التي احتلوها لغة العلم والحضارة، فأخذوا في تطعيم اللغة القشتالية عن طريق الترجمة، ونقل المعارف الإسلامية إلى لسان الإسبان، ليكون لهم لسان وطني مشترك قابل لاستيعاب الثقافة والعلوم[43].

وبلغ الاهتمام بنقل علوم العرب وآدابهم في إسبانيا النصرانية ذروته في عهد ألفونسو العاشر، حيث أشرف بنفسه على توجيه أعمال الترجمة والتحرير أو التلخيص التي كان مساعدوه يقومون بها، وأنشأ في مرسية معهدا للدراسات بمعونة أحد علماء العرب، وهو محمد بن أحمد الرقوطي، وكان من سكان رقوطة [44]، وكان معظما عند ألفونسو العاشر حتى طلب منه أن يتنصر، غير أن أنه سرعان ما رحل عن مرسية، ودخل في خدمة السلطان النصري محمد بن يوسف(733-755هـ/1333/1354م) الذي أنشأ مدرسة درس بها الرياضيات والفلك وغيرها من العلوم، وكان الرقوطي كما يقول لسان الدين الخطيب:" طرفا في المعرفة بالفنون القديمة: المنطق والهندسة والعدد والطب، فيلسوفا طبيبا ماهرا آية في المعرفة بالألسن يقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها..."، ويذكر ابن كثير عنه بقوله:" اشتغل بعلم الأوائل والفلسفة فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد وصنف فيه"، وقد كان لهذه المدرسة تأثيرها العلمي الواسع فاجتذبت إليها أفواجا من المسلمين والنصارى واليهود ليتلقوا علومهم في الرياضيات والفلك على يد العالم محمد بن أحمد الرقوطي[45].

واهتم ألفونسو العاشر بعلم الفلك الذي أتقنه العرب ونبغوا فيه بينما كانت أوروبا حتى ذلك الوقت تجهل هذا العلم جهلًا تامًا، أما هو -كما يأمل مستشاروه اليهود-فيجب أن يكون الأول الذي يشيد مرصدًا في مملكته مثله في ذلك مثل خلفاء العرب وحكامهم بل يجب أن يكون مرصده أكبر وأن يزوده بآلات وأجهزة أحسن وأكمل لكي يصير أكمل وأحسن مرصد في العالم. لكن لتحقيق هذه الغاية يجب عليه أن يستعين بالعلماء العرب أو اليهود الذين تخرجوا على الأساتذة العرب وأخذوا عنهم الكثير، لذلك أمر هذا الملك النصراني

بترجمة سائر الكتب العربية إلى اللغة القشتالية الدارجة وأسوة بما فعل العرب يجب أن تركب وتقام أكمل وأدق حلقات في العالم [46].

وقام ألفونسو العاشر بجمع نفر من العلماء في طليطلة ليصنفوا له كتب في علم الفلك، وقد تمكن هؤلاء العلماء من النهوض والتقدم في الدراسات الفلكية بفضل مشاهداتهم ونقولهم، وبما قاموا به من أعمال علمية أخرى، وكان ألفونسو العاشر كثيرا ما يشرف بنفسه على الأعمال التي كانت تجرى في مدرسته بطليطلة، وكان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب العربية خاصة، ويقوم بترتيبها وتنظيمها بنفسه، خاصة النظريات التي تعدل مذهب بطليموس في علم الفلك والجغرافية، وأمر بصنع آلات وأجهزة لم تكن معروفة إلى ذلك الحين، وكان يراجع ما ينجز من الترجمات ويصلح من أسلوبها، ومن أشهر كتب علم الفلك نذكر: الكتب الألفنسية في أجهزة علم الفلك وأدواته وكتبه، وتتناول تركيب الأجهزة الفلكية وطرق استعمالها وأفلاك الكواكب والإسطرلاب، وتحوي وصفا للصفيحة التي وضعها الزرقالي وأوصافا للساعات وما إلى ذلك، وكتاب الزيج الألفونسي وهو دراسة للتقاويم، وقد أُلف بناء على آلاف المشاهدات التي تمت قي قلعة سان سرفاندو[47].

وعمل في تصنيف هذه الكتب عددا من العلماء ومن أبرزهم: الربان يهوذا بن موسى بن موسكا(R. Yehuda ben Mosca)، والربان زاج الطليطلي (Rabi Zag de Toledo)، وخوان د آسبا (Juan de Aspa)، وفرناندو الطليطلي (Fernando de Toledo)، وخيل د تبلادوس (Gill de Teblado)، وبدرو دِل ريال (Pedro del Real)، والربان دون أبراهام بن ليفي (Rabi Don Abraham Helevi)، والمعلم برنالد العربي (Maestre Bernaldo el Arabigo)، وجرفي بيريز (Garci Pérez)، وكثير من الكتب التي استعملت في هذه التآليف كانت نقولا عن الزرقالي ومسلمة المجريطي، وقسطا بن لوقا، وغيرهم كثير[48].

ومن الأدلة الناصعة على أن الكتب العربية في شتى العلوم والفنون كانت متوفرة في أيدي النصارى الإسبان منذ استيلائهم على مدن الإسلام كطليطلة وغيرها إلى عهد ألفونسو الحكيم ما ذكره ابن زرع من أن السلطان يعقوب المريني(657-685هـ/1259-1285م) اشترط في بنود المعاهدة السلمية التي أبرمها مع سانشو نجل الملك ألفونسو الحكيم وذلك يوم الأحد 20 من شعبان سنة 684هـ/1285م بعد حروب طويلة بينهما على إثر موت ألفونسو العاشر أن يبعث إليه ما يجده في بلاده بأيدي النصارى واليهود من كتب المسلمين فبعث إليه منها ثلاث عشرة جملا، فيها جملة من المصاحف وتفاسير القرآن، كتفسير ابن عطية(ت541هـ/1147م) وتفسير الثعالبي 429هـ/1038م)، ومن كتب الحديث وشروحها كالتهذيب والاستذكار لابن عبد البر(ت463هـ/1071م)، ومن كتب الأصول والفروع واللغة العربية والآداب وغير ذلك، فأمر السلطان بحملها إلى فاس، وتحبيسها على المدرسة التي أسسها لطلبة العلم، وجدير بالذكر أن هذا النشاط العلمي الذي رعاه الملك ألفونسو العاشر، وكان مقيما بطليطلة قد امتد إلى أنحاء بلاد الأندلس، فأقبل النصارى على إنشاء مدارس لدراسة العلوم العربية في إشبيلية سنة 648هـ/1250م وميورقة 653هـ/1255م وبرشلونة 658هـ/1259م، وبلنسية سنة 680هـ/1281م، وقد تطورت بعض هذه المدارس إلى جامعات وامتد تأثيرها إلى خارج إسبانيا، حتى كان من بين اهتمامات المؤتمر الذي انعقد في فيينا سنة 711هـ/1311م الاهتمام بترسيخ الدراسات العربية في أوروبا، فأنشأ كرسي للغة العربية في جامعات روما وسلمنكا وبولونيا ومونبيليه وغيرها من المدن التي تألقت في احتضان العلوم العربية والتوفر على دراستها[49].

من خلال ما سبق يمكننا القول أن مدينة طليطلة كانت من أشهر المدن التي انتقلت منها الحضارة العربية الإسلامية إلى ممالك إسبانيا النصرانية ومنها إلى سائر دول أوروبا، وقد ساهم وقوع هذه المدينة مبكرا منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أن تكون من أولى المدن الإسلامية التي عجلت بنقل التراث الحضاري إلى ممالك إسبانيا وأوروبا، وكان للمستعربين والمدجنين واليهود الدور الكبير في ترجمة التراث الإسلامي الموجود بطليطلة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية والقشتالية، وكانت بالتالي من أبرز المدن التي ساهمت في نهضة أوروبا وتقدمها في المجال العلمي الحديث.

الهوامش:

1-طليطلة: لها ثلاث صيغ في النطق: 1-طُلَيْطُلَة بضم الطائين وفتح اللامين وسكون الياء، 2-طُليطلة: بضم الطاء الأولى وفتح الثانية وهذا مما سُمع من سكان بلاد المغرب كما يذكر الحموي، 3-طُلَيْطِلة: بضم الطاء الأولى وفتح اللام وسكون الياء وكسر الطاء، وأكثر الصيغ استعمالا هي الصيغة الأولى وذلك من خلال كثرة تواردها في المصادر. عبد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992هـ، ج2، ص907؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1415هـ/1994م، ج4، ص39؛ إسماعيل بن محمد أبو الفداء، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، فرنسا، 1840م، ص176.

2-البكري، المصدر السابق، ج2، ص907؛ علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1978م، ج3، ص249؛ أمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص363.

3-الميل: الميل في كلام العرب قدر منتهى البصر من الأرض، ويقدر عند الحنفية والمالكية بـــــــ: 1855 متر، وعند الشافعية والحنابلة بـــ: 3710 متر، ويقدر الميل حاليا عند الجغرافيين بـــــ: 1.609 كيلومتر. محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، 2001م، ج15، ص284؛ محمد بن عابدين، رد

المحتار على الدر المختار، ط2، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1412هـ/1992م، ج1، ص233؛ يوسف بن عبد البر، الاستذكار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1421هـ/2000م، ج1، ص49؛ محمد بن أحمد الشربيني، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، دار الفكر، بيروت-لبنان، د. ت. ط، ج1، ص171؛ إبراهيم بن مفلح، المبدع في شرح المقنع، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1418هـ/1997م، ج2، ص115؛ علي جعة محمد، المكاييل والموازيين الشرعية، ط2، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة-مصر، 1421هـ/2001م، ص53.

4-محمد بن عبد الله الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان، 1980م، ص393.

5-محمد بن محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1409هـ، ج2، ص536؛ أرسلان، المرجع السابق، ص363.

6-إبراهيم بن عطية السلمي، تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي دراسة تاريخية حضارية 92-478هـ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1425/1424هـ، ص16.

7-أبو الفداء، المرجع السابق، ص177؛ الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص536؛ الحميري، المصدر السابق، ص393؛ أرسلان، المرجع السابق، ج1، ص424؛ حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الأندلس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1416هـ/1996م، ج1، ص132؛ السلمي، المرجع السابق، ص17.

8-البكري، المصدر السابق، ج2، ص907؛ الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص536؛ الحموي، المصدر السابق، ج4، ص40؛ زكريا بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت-لبنان، د. ت. ط، ص ص545-547؛ محمد بن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1983م، ج2، ص14؛ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1408هـ/1988م، ج4، ص149؛ السلمي، المرجع السابق، ص ص20-21.

9-لمزيد من التفصيل عن تاريخ طليطلة خلال العهد الإسلامي أنظر: ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص ص12-13؛ أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت-لبنان، 1900م، ج1، ص ص271،289،294،329،340،350،388،428،440؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، 1417هـ/1997م، ج1، ص ص38-52، ج2، ص ص99-118؛ السلمي، المرجع السابق، ص ص23-133؛ خليل إبراهيم السامرائي وآخران، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1، دار الكتاب الجديدة، بيروت-لبنان، 2000م، ص ص232-234.

10-كان المجتمع الأندلسي يضم العناصر التالية: أ-العرب: الذين دخلوا الأندلس على موجات متتالية أو طوالع بالإضافة إلى من هاجر إليها من أهل الشام، وكانت القبائل اليمنية تفوق القبائل العدنانية عددا وقوة، ب-البربر: الذين دخلوا إلى الأندلس مع جيش طارق بن زياد منذ سنة92هـ/711م وأصبحت بلاد المغرب مصدرا للهجرات البربرية إلى الأندلس سواء من قبائل البرانس أو البتر. ج-الموالي: دخل عدد كبير من موالي بني أمية الأندلس في طالعة بلج، وازداد عدد الموالي بعد سقوط دولة بني أمية في المشرق سنة 132هـ/750م وفرار عدد هائل منهم دخل البلديين، وجماعة الإسبان المسالمة أي الذين دخلوا في الإسلام، د-العجم الذميين أو المستعربين وهم الذين بقوا على دينهم في ظل الحكم الإسلامي، هـ-طائفة المولدين وهم نتاج التزواج بين رجال العرب ونساء الإسبان، و-البربر الذين دخلوا مع طارق بن زياد أو الذين هاجروا من بلاد المغرب إلى الأندلس-إما بحثا وراء الغنائم أو سعيا للاستقرار، ز-طائفة اليهود، وكان لكل من هذه العناصر دور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض سواء بالمصاهرة أو بالعشرة أو بالمجاورة، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه، مما كان له أثره في طبيعة الحضارة الأندلسية أنظر: عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية-مصر، 1997، ص ص119-133؛ ابن عنان، المرجع السابق، ج1، ص ص203-206.

11-ابن عنان، المرجع السابق، ج1، 206؛ أبو عبية، المرجع السابق، ج2، ص957.

12-عبادة كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، ط1، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة-مصر، 1414ه/1993م، ص ص116-117.

13-آنخل بالنثيا جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة-مصر، 1955م، ص ص485-486؛ المقري، المصدر السابق، ج3، ص186؛ كحيلة، المرجع السابق، ص117؛ عنان، المرجع السابق، ج1، ص507؛ أبو عبية، المرجع السابق، ص959.

14-بالنثيا، المرجع السابق، ص488.

15-عبد العظيم رجب محمد، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة-مصر، د. ت. ط، ص416؛ عبية، المرجع السابق، ص462.

16-المدجنون: من فعل دجن بالمكان دجنا أي أقام به، ومنه قيل لما يألف من الشاء والحمام ونحوه دواجن، والمدجنون هم المسلمون الذين سمح لهم النصارى بعد الاستيلاء على الأندلس بالبقاء فيها على أن يدفعوا لهم مقابل ضرائب معينة. أنظر: أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، د. ت. ط، ج1، ص190؛ رينهارت بيتر آن دوزي، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد النعيمي وجمال الخياط، ط1، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 2000م، ج4، ص297.

17-عبد العظيم، المرجع السابق، ص416؛ عبية، المرجع السابق، ص964.

18-عبد العظيم، المرجع السابق، ص ص416-418؛ عبية، المرجع السابق، ص965.

19-عبية، المرجع السابق، ص966.

20-خلف بن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، عني بنشره وصححه وراجع أصله: عزت العطار الحسيني، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، 1374هـ/1955م، ص ص72-73؛ خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، 2002م، ج1، ص146؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت-لبنان، د. ت. ط، ج1، ص269؛ عبد العظيم، المرجع السابق، ص461؛ عبية، المرجع السابق، ص966.

21-ابن بشكوال، المصدر السابق، ص ص531-532.

22-عبية، المرجع السابق، ص ص966-977.

23-وليام جيمس ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل، بيروت-لبنان، 1408هـ/1988م، ج14، ص51؛ رينهرت بيتر آن دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق وتقديم: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، ج2، ص ص52-53؛ عبد العظيم، المرجع السابق، ص411.

24-عبية، المرجع السابق، ص962؛ ديورانت، المرجع السابق، ج14، ص48.
25-ألدوميلي، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دار العلم، 1381هـ/1962م، ص ص384-385؛ عبية، المرجع السابق، ص ص962-963؛ ديورانت، المرجع السابق، ج17، ص16.
26-عبد العظيم، المرجع السابق، ص421.
27-أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة-مصر، 1358هـ/1939م، ج2، ص258؛ عبية، المرجع السابق، ص ص967-968.
28-دوزي، المرجع السابق، ص ص53-55؛ سيجريد هونكه، شمس الله تشرق على الغرب، ترجمه وحققه وعلق عليه: فؤاد حسنين علي، دار العلم العربي، 1432هـ، ص136؛ عبد العظيم، المرجع السابق، ص452؛ عبية، المرجع السابق، ص ص968-969؛ ألدوميلي، المرجع السابق، ص454.
29-أحمد شلبي، موسوعة الحضارة الإسلامية، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة-مصر، 1987هـ، ج9، ص ص85-86.
30-المرجع نفسه، ص86.
31-عبد العظيم، المرجع السابق، ص ص425.
32-المرجع نفسه، ص ص425-427.
33-عبية، المرجع السابق، ص969؛ ألدوميلي، المرجع السابق، ص454.
34-المقري، نفح الطيب، ج1، ص441؛ عنان، المرجع السابق، ج2، ص ص108-118؛ الدوميلي، المرجع السابق، ص456؛ عبية، المرجع السابق، ص973؛ عبد العظيم، المرجع السابق، ص451؛ هونكه، المرجع السابق، ص440.
35-حسن نافعة وكليفورد دبوزوث، تراث الإسلام، ترجمة: حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، عالم المعرفة، العدد 12، 1978م، ص183-184؛ صاعد الأندلسي، كتاب طبقات الأمم، نشره وذيله بالحواشي وأردفه بالروايات والفهارس الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت-لبنان، 1912م، ص ص83-84؛ عبد العظيم، المرجع السابق، ص462.
36-نافعة وآخر، المرجع السابق، ص196.
37-عبية، المرجع السابق، ص975.

38-المرجع نفسه، ص ص975-976، ألدوميلي، المرجع السابق، ص457.
39-ألدوميلي، المرجع السابق، ص458.
40-المرجع نفسه، ص ص463-465؛ عبية، المرجع السابق، ص ص976-977.
41-عبية، المرجع السابق، ص977.
42-هونكه، المرجع السابق، ص115؛ ألدوميلي، المرجع السابق، ص470؛ عبية، المرجع السابق، ص981.
43-السامرائي، المرجع السابق، ص ص295-297؛ عنان، المرجع السابق، ج4، ص ص599-606، ج5، ص ص48-82.
44-رقوطة: بلدة قريبة من مرسية. أنظر: إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، 1407هـ/1986م، ج13، ص261.
45-نفسه، لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1424هـ، ج3، ص48؛ عبية، المرجع السابق، ص982؛ بالنثيا، المرجع السابق، ص ص573-574؛ عبية، المرجع السابق، ص982.
46-هونكه، المرجع السابق، ص ص115-116.
47-بالنثيا، المرجع السابق، ص ص574-575.
48-المرجع نفسه، ص575.
49-علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط-المملكة المغربية، 1972م، ص363؛ عبية، المرجع السابق، ص ص984-985.